الفكر الإصلاحي والتعاطي مع الشأن الإنساني

■■ معتصم الغنيمي

الكتاب: التشريع الاسلامي.. مناهجه ومقاصده، الجزء الثالث.
المؤلف: آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله).
الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ، الصفحات: ٣٩٦
الناشر: انتشارات المدرسي، طهران، ١٤١٥هـ

تقوم المصداقية الأخلاقية للفكر الأصلاحي على جهة مقاربته لدقائق الشأن الانساني، وتداخله الحيوي مع مفرداته في تنوعاتها وتوظيفاتها المتعددة، وعند هذه الآلية في العلاقة والتفاعل بين الانسان وحوافز تقدمه ورقيه، تبدو فلسفة الفكر الإصلاحي وهي قريبة إلى الأرض بنفس الطريقة التي هي قريبة من السماء، في ذات الوقت الذي تبدو فيه قريبة من ذات المصلح على نفس مقاربتها ومداناتها من ذات الإنسان الآخر، وفي واقع الأمر إنَّ مثل هذه الموازنة تعكس الطبيعة الجوهرية لمنهجية العمل التغييري، وما ينطوي عليه من قيم ومصاديق تتصل بدوافعه وموضوعيته وأهدافه؛ لذا فإنَّ أي خلل أو مساس يلحق بهذه الموازنة كفيلٌ بإفراغ العمل التغييري من مقوماته وأسسه العملية والواقعية، وبالتالي تحويله إلى فكرة ضبابية ورؤية أنانية منعزلة، تحول بينها وبين التجانس مع الآخرين حواجز معقدة يصعب تجاوزها وتخطيها. ومن هنا فأنَّ التكافؤ في مقاربة المفردة الإصلاحية من (السماء - الأرض) تمثل أولوية أساسية في توفير عناصر الحياة واستجلاء مواطن الخصب في عقل وضمير الإنسان، وصولاً إلى مجانستها ومعاشقتها وتهيئة الأجواء المناسبة لتجذرها، وإغنائها على مسار من الخلود والديمومة والتواصل مع تفاصيل الوجود ومفرداته.

ولاشك إنَّ مثل هذا التكافؤ نجده ماثلاً في رسالات الأنبياء عليهم السلام ومهامهم الإصلاحية والتغييرية، التي بعثوا من أجلها؛ فيلاحظ ان هذه الرسالات على الرغم من قدرة منطلقها

وعظمتها إلا أنَّها تتنزه من آفة الكبرياء والتعالي على الأرض؛ فيبعث الله سبحانه الأنبياء عليهم السلام إلى أقواهم وأممهم ليعيشوا بينهم ويمارسوا دعواتهم، يشاطرونهم شؤونهم ومشاغلهم وهمومهم ولا يأنفون من التعاطي مع وسائل العمل والكدح والحصول على اللقمة الحلال، تماماً كما يفعل غيرهم فَمِنْ هؤلاء الأنبياء مَنْ كان يعمل راعياً للاغنام، ومنهم مَنْ كان يعمل نجاراً ومنهم من كان فلاحاً وخياطاً وحداداً، في نفس الوقت الذي كانوا فيه يؤدون دعواتهم ويمارسون مهامهم كأنبياء مكلفين من قبل السماء لهداية أهل الأرض.

وفي القرآن الكريم نجد السور والآيات المباركة تؤكد على آدمية الأنبياء، وتحذِّر من الخلط في فهم هذه الآدمية والخروج بها عن إطارها الواقعي والحقيقي، وتصف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه إنسان وليس ملكاً، وهو بهذا المعنى رسول كبقية الرسل يموت أو يقتل، غير أنَّ هذا المصير الإنساني لا يعني تشابهاً تماثلياً لمصير الرسالة والدعوة الاصلاحية والتغييرية التي بُعث من أجلها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[1].

وبهذه المقاربة المتكافئة نجد أنَّ الرسالات السماوية تتمتع بالقداسة والقدرة على التعاطي مع الشأن الإنساني، فيما يلاحظ أنَّ الافتقاد إلى مثل ذلك التكافؤ أدى إلى افراغ الكثير من العناوين التغييرية والاصلاحية من محتوياتها؛ لتتحول إلى مجرد بضاعة تخضع إلى شروط (الموضة) و(المرحلة)، وتنتهي بانتهائها وتُستهلك باستهلاكها، ومردُّ ذلك أنَّ أي انغلاق في إحدى الدائرتين (السماء أو الأرض)، وعدم القدرة بالانفتاح على الدائرة الأخرى كفيلٌ باقتطاع العلائق والأسباب وجعل الحضور في إحدى هاتين الدائرتين حضورا مشلولا وحركة غير قادرة على التقدم والابصار والتواصل مع أسباب الحياة وأهدافها ومثل هذه الحقيقة تدفع إلى استحضار قول أمير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»[2].

وفي هذا الوضوح مايغني عن الإشارة إلى موضوعية التكامل بين المسارين في اتجاهيهما المستقيمين إلى الدنيا والآخرة.. هذه الحقائق لابد من التوقف عندها ملياً، والاستفاضة في درسها وفهمها ونحن نتصفح كتاب (التشريع الاسلامي.. مناهجه ومقاصده)، في جزئه الثالث لمؤلفه سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله)، ففي هذا الكتاب تبدو العلاقة الميدانية بين المفردة الإصلاحية من جهة، والشأن الإنساني في دقائقه وتفاصيله من جهة اخرى، تبدو هذه العلاقة ماثلة بأجلى صورها وأوضحها.

فالانسان؛ ذلك الكائن المكافح الذي قطع كل هذه الأشواط الزمنية والمكانية؛ سعياً وراء أهداف آمنَ بها واعتقد بضرورتها وأهميتها. هذا الإنسان وصل إلى محطَّات القرون التالية وبالذات القرنين العشرين والواحد والعشرين، وهو يحمل في عقله وضميره تراث تجربة غنية وكبيرة، استمد من خلالها الكثير من الأدوات والمقاييس الأخلاقية والاجتماعية، حتى

أصبح قادراً على إرساء نظام اجتماعي وأخلاقي كفيل بتوجيه حركة المجتمعات، وتوفير عوامل وعيها ونهوضها حتى تصل في نهاية المطاف إلى أهدافها وغاياتها، ولعل الخلاصة في عطاء تلك التجربة يتمثل (بالقيم) التي عن طريقها اتضحت العلاقة الأخلاقية والمصيرية بين الإنسان والأهداف المقدسة، المقترنة بفكره ومسيره وتطلعه الدائم والدؤوب إلى الحقيقة، فقد كشفت تلك التجربة أنَّ هنالك أهدافاً مقدسة ومشروعة لابد من الوصول إليها والعمل على إنجازها وتحقيقها؛ ليكون هذا الوصول وهذا الإنجاز في نهاية الأمر وهو يجسد منهجية عامة وشاملة، تؤكد على كفاح الانسان المشروع وجهاده من أجل ترسيخ مقومات إنسانيته وإستجلاء خصائصها ومميزاتها وحمايتها من أي طارئ أو شاذ يؤدي إلى تشويهها وانحرافها.

لذا يُعرِّف سماحته القيمة بقوله: «هي إيمان (قناعة) الانسان بأهداف مقدسة أو (مشروعة)، تعطيه معايير للحكم على الأشياء والأفعال بالحسن والقبح أو بالأمر والنهي».

وهذا التعريف يقود إلى دور (القيمة) في استنفار شعور الانسان بجمالية الأشياء أو قبحها، وبالتالي توجيه حركته الضميرية والأخلاقية إلى الجوانب الإيجابية، في سلسلة الأضداد وتزاحمها كما هو قائم في هذه الحياة.. ومادام الإنسان مجبول على الحركة والطموح والاستهداف فأن القيمة تسهم إسهاماً فاعلاً وواضحاً في ترشيد هذه الحركة واستهدائها، حتى تصل بصاحبها في النهاية إلى مواطن الهداية وأهداف الفلاح والنجاح. إلى ذلك يتطرق سماحته بقوله: «لأنَّها (القيمة) تقترن بأهداف (غايات)؛ فهي تحفز الإنسان وتدفعه وتستثير فيه الحركة نحوها فهي - إذاً - تشترك مع مجموعة مفردات من هذه الزاوية، وإنْ بصورة جزئية، مثل: الدافع لأنَّ أهداف الانسان تدفعه نحو وجهة معينة، وكذلك الحاجة؛ لأنَّها قد تخلق هدفاً، ومثله الاهتمام، لأن الانسان أشد ما يكون اهتماماً بأهدافه. بالرغم من وجود مفارقات بينها وبين هذه المفردات..».

وهكذا نجد أنَّ الإحاطة بمعنى القيمة يقود إلى العديد من التفاصيل التي تشكل بمجموعها موقف الإنسان، والآلية العقلية المعتمدة لتشكيل فعله وإرادته، وتوجيههما الوجهة المنسجمة مع ضرورات الحياة وقوانينها، فتلحظ أنَّ هذه التفاصيل تشتمل على الحاجة التي تمثِّل منطلقاً لفاعلية الشعور بالهدف، وبالتالي استنهاض الدافع والحافز ليأتي دور القيمة في تحديد الاتجاه، وتسمية الأدوات والوسائل، كذلك تسمية الهدف والغاية المراد الوصول إليهما.

ثم يشير سماحته إلى أن الأهداف الإنسانية تتوزع على قسمين:

القسم الأول: الأهداف المقدسة:

وهو ما أشرنا إليه في المقدمة بالمقاربة من السماء؛ حيث ينتج عن ذلك تأسيس العلاقة

العقلية والفكرية بين الإنسان والغيب وهي علاقة تتمخض عن تلبية حاجة هذا الإنسان إلى قيم عديدة من قبيل العدل والمساواة والمحبة ومساعدة الآخرين.. إلخ.

القسم الثاني: - فينطوي على الأهداف المشروعة - وهي كل ما يحثُّ على تأدية متعلقات الإنسان المادية من حاجة إلى الأكل والشرب والزواج.. إلخ.

ولاشك أن الحرص على إيجاد المقاربة والتوازن بين هذه الأهداف يمثل ضرورة لابد منها في التعاطي مع مسيرة الإنسان، والتعامل مع مفرداتها ومقوماتها بما يحافظ على هدفيتها واستقامتها.

يقول سماحته: «وبما أنَّ حقيقة القيمة - فيما يبدو لي- كونها هدف الإنسان فإنَّ للإنسان نمطين من الغايات المقدسة والمشروعة، فأما الغاية المقدسة فهي التي تعبر عن عقل الإنسان المتطلع إلى الغيب، وعن ضميره المغموس بحب الخير والفضيلة، وأسمى تجلياته عبادة الخالق الرازق المدبر سبحانه، وأما الغاية المشروعة؛ فهي الحاجات المادية التي لاتتنافى وتلك الغاية المقدسة مثل حب الشهوات من النساء والبنين».

ثم يتطرق (دام ظله) إلى المفردات السلوكية والعملية التي تشتمل عليها (المنظومة القيمية)؛ مثل اختيار الوسائل المعتمدة للوصول إلى الهدف، والحكم على الأشياء والظواهر والتمييز بينها وكذلك الحكم على الأفعال..

وهكذا نجد أنَّ هذه المنظومة تُعنى بتنقية بصيرة الإنسان وتفعيل وازع الأخلاق والضمير لديه، إضافةً إلى استنفار حوافزه وقدراته وتسخيرها في موارد الخير والبناء، يقول سماحته: «إنها تعطينا (معايير) و(مقاييس) و(موازين)، ونستطيع بتلك المعايير اكتشاف اختيار أقرب الوسائل إلى الهدف وانتخاب الأمثل والأفضل من بين البدائل في تحقيق الأهداف.. فإذا كانت لدينا وسيلتان كلتاهما قريبتان إلى الهدف، ولكنَّ أحداهما كانت أمثل من الناحية الأخلاقية (القيمية) من الثانية انتخبناها، والحكم على الأفعال أيّها أفضل وخير أملاً، إضافة إلى إعطاء صفة الالزام والوجوب في حياة الناس فالفضيلة قيمة يجب التحلي بها، والعدالة قيمة لازمة على الناس، والإحسان قيمة ينبغي ممارستها».

القيم بين أهداف الإنسان واهتماماته

و(القيمة) و(العقيدة)؛ هاتان المفردتان تترادفان في سياقات مفاهيمية أخلاقية ومنهجية، غير أنهما تتمايزان عن بعضهما من حيث سعة الدلالة وشمولية الهدف والوظيفة، ففي الوقت الذي تجسد فيه العقيدة رؤية الإنسان لمفاهيم دينية أو سياسية أو اجتماعية، فإنَّ القيمة تجسد المقياس والضابطة لتوجيه سلوكه، وتشكيل مشاعره وأحاسيسه إزاء الكثير من العناوين والمسميات في الحياة.

وعلى ذلك فإنَّ المعتقد يتصل بفاعلية الموقف ووضوحه إزاء قضايا أساسية وجوهرية؛

مثل الحق والباطل فيما نلاحظ أنَّ القيمة تتصل بكيفية الفعل والإجراء، وما يمكن عمله في أي مورد من الموارد أو عدم عمله في ضوء دلالات القيمة ومؤشراتها، لذا يشير سماحته: «من الطبيعي أنَّ الفجوة تتقارب بين القيمة والمعتقد، لأنَّ كلاً منها يقوم بثلاثة أدوار مهمة:

١ - تمييز الحق عن الباطل.

٢ - تحديد ما هو حسن عن ما هو قبيح.

٣ - الترغيب في بعض الأفعال، والتحذير من البعض الآخر.

وهكذا تشترك القيمة والمعتقد في هذه المهمات الثلاث، إلا أننا قد نميز القيمة عن المعتقد بأنَّ القيمة هي واحدة من مظاهر الاعتقاد، ذلك أنَّ أهم خصيصة للمعتقد هي بيان الحق والباطل، بينما أهم فائدة للقيمة بيان ما ينبغي فعله أو ينبغي تركه، وهذه الفائدة مترتبة على تلك الخصيصة».

وترافق القيمةُ الإنسانَ في تعاملاته الاجتماعية وسلوكياته اليومية، فهو يستند إلى مفاهيمه الأخلاقية والاعتبارية في عملية التقييم والمفاضلة بين العناوين والمسميات في الواقع والحياة، فيما يلاحظ أن المعتقد يرافق ذات الإنسان إلى مدىً أوسع وأشمل، حيث يكون من هذا المنطلق معنياً بالتمييز بين الحقائق وأضدادها، والكشف عن الزيف مقابل الحقيقة، فيكون عند ذلك مطالباً باتخاذ الموقف وإيجاد الرؤية المناسبة إزاء هذا وذاك؛ بناءً على ما يؤكده ذلك المعتقد وفي ضوء ذلك نجد أن القيمة تفرض على الإنسان الترجيح بين العناوين والمسميات، فيما نجد أن المعتقد يفرض عليه الموقف إزاء القضايا والمسائل الأساسية والجوهرية في هذه الحياة.

يقول سماحته: «وتعكس القيم أهدافنا، واهتماماتنا، وحاجاتنا، والنظام الاجتماعي والثقافي الذي تنشأ فيه؛ لما تتضمنه من نواحي دينية واقتصادية وعلمية، من هنا يفرق بعضهم بين القيم والمعتقدات على أساس أنَّ القِيَم تشير إلى الحسن مقابل القبيح، أما المعتقدات فتشير إلى الحقيقة مقابل الزيف، فالمعارف في القيم تتميز عن باقي المعارف الأخرى في الخاصية التقييمية؛ حيث يختار الشخص في ضوء تقويمه ما هو مفضَّل أو غير مفضَّل بالنسبة إليه، كما أنَّها ليست مرادفة للمعتقدات أو الأهداف التي يتبناها الفرد، ويمكن تصورها في ضوء متصل المقبول المرفوض؛ أي نظام (المقبول المرفوض) وبكلمة: القيمة هي الإيمان بالهدف وما يتبع هذا الإيمان من خصائص بينما المعتقد هو مطلق الإيمان بشيء فالقيمة أخص (أضيق نطاقاً) من المعتقد».

ثم يتطرق سماحته إلى الفرق بين الاتجاه السلوكي لدى الإنسان وبين القيمة المعنية، بتحديد الموقف والدافع إلى تشكيل الاتجاه الذي سوف يمتلك عند ذلك مصداقيته المطلوبة، من خلال تعدد المواقف وتكرارها بطريقة منسجمة ومتناغمة، باتجاه معين دون غيره

يقول: «قبل كل شيء لابد من أنْ نبيِّن تعريف الأتجاه، فبالرغم من عدم ذكر تعريف محدد لهذه الكلمة، إلا أنَّ المتصور هو أنَّ الاتجاه مجموعة مواقف للإنسان في الحياة تكشف عن وجهة حياته، فمثلاً قد يكون لك موقف محدد حول قضية، وموقف آخر حول قضية أخرى، وموقف ثالث حول قضية ثالثة، لو اجتمعت هذه المواقف وانتضمت إلى بعضها بحيث تكون المواقف الثلاثة متقاربة متناغمة. تشكل هذه نظاماً من المواقف وتسمى بالاتجاه (أي الاتجاه العام لحياتك)».

وهكذا يلاحظ أنَّ التماثل بين القيمة والاتجاه؛ يبدو واضحاً من حيث تحديد الاتجاه وتكوين معالمه ومساراته، غير أنَّ ذلك التماثل لا يمنع من كون القيمة أكثر عمومية وشمولية من الاتجاه.

الهدفية في الحياة، وتعزيز النظام القيمي

تطبع الوجهة الهدفية مفردات الحياة جميعها دون استثناء، وتبدو هذه الهدفية وهي تعكس النظام الدقيق لخلقة الكون، فضلاً عن حكمة إرادة الخالق وتدبيرها. وبموجب هذه الهدفية تبرز مفهومية الفائدة المشروعة، وتتحدد حاجة الإنسان لسلسلة الضرورات في أولوياتها ومعطياتها المتعددة، حيث يمكن أنْ يقترن الهدف مع الفائدة والغاية مع حوافز الاندفاع، والحركة وفقاً لهذا الاتجاه أو ذاك، ثم لتتباين طبيعة الغايات والأهداف تبعاً لطبيعة هذه الحوافز والدوافع وعلاقتها مع الحاجة المحفزة. ومن هنا نجد أنَّ الأسبقية في وجود الأرضية المناسبة لنشوء الهدفية تتجسد أولاً في مفردات الواقع، والصيرورة الخلفية ودلالاتها السببية والوظيفية، حتى تجد المواقف والأفعال الإنسانية هدفيتها بناء على ما تعكسه تلك المفردات من معان وعناوين ومسميات.

وعلى ذلك يلاحظ أنَّ فلسفة الخلق ونشأة الحياة قائمةٌ على: هدف وغاية، كفيلين بمنح الظواهر معانيها ومسمياتها، فيما يلاحظ أنَّ حركة الإنسان وفاعليته قائمتان على أساس سببي وتكاملي مع هذه الهدفية، ففي البدء خلق الله سبحانه وتعالى الكون وأوجد له نظاماً وموازين، وجعل ذلك ملبياً للغاية من أمر الخلق. ومن ثم خلق الإنسان وهو أعلم بحاجته ورغبته، وبموجب هذا النظام أودع سبحانه الكون كل العناصر التي يتكون منها أمل الإنسان المشروع وطموحه المقدس. كل ذلك وهو قائم طوع إرادته متجهاً إلى هدف واحد دون غيره، حيث ينتهي هذا الكون في خاتمة المطاف إلى حيث كل شيء هالك إلا وجهه.

وفي القرآن الكريم نقرأ قوله سبحانه، وهو يقرن بين المخلوقات غير الإنسان كالليل والنهار، والغيوم والمطر، والأنعام وبين فائدة الإنسان من هذه المخلوقات. وعندما يقتصر هذا القول على شأن الانسان وتعزيز نظامه القيمي والأخلاقي، نجد أنَّ هذا القول يؤكد

على الغاية من وراء ذلك، مشيراً إلى ضرورة شرعية هذه الغاية وتطابقها مع تعاليم القرآن الكريم وما يأمر به الرسول ﷺ أو ينهى عنه.

ويؤكد سماحته: «لم أجد في كتاب الله المجيد حكماً شرعياً، ولا وصية إلهية، إلا وقد قُرِنا بالغاية التشريعية منهما بتعبير ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ أو كلمة اللام لكيلا أو ما أشبه». ثم يورد سماحته مجموعة من الآيات القرآنية التي تعنى بالإنسان، معززة فيه نظامه القيمي والأخلاقي، حيث يقرن جل وعلا بين ذلك وبين الغاية الكامنة وراء تعزيز النظام القيمي، والارتقاء به إلى أهداف وغايات أسمى.

«لنتلوا معاً قوله سبحانه: ﴿ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٣]، ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٤]، ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٥].

وهكذا نلاحظ هذا الحضور المتكرر للهدف من وراء الأحكام والتشريعات الالهية وهو يشير بوضوح إلى أهمية النظام وقدسيته، وضرورة أنْ يكون قائماً على أسس علمية ومنهجية تقوِّم علاقة الإنسان بمحيطه الخارجي، وترتقي بمعادلة الحاجة والهدف إلى مرتبة ذات مصداقية مبدئية وأخلاقية».

إنَّ البحث عن المعنى، وإقران الفعل والممارسة بالهدف والغاية، يمثِّل التقاءً مع منطق الفطرة ووضوح الرؤية العقلية للإنسان، وعلى ذلك نجد هذا الإنسان وهو يبحث عن ذلك المعنى والهدف في الحالتين الدينية والوضعية؛ لذا نجد أن الحالة الثانية تتخذ من التشريعات والأحكام الموضوعة من قبل الإنسان وسيلة للوصول إلى الهدف والغاية، أيضاً فهنالك على سبيل المثال أهدافاً تتعلق بالأمن وأخرى بالنظام الاقتصادي والتنموي.. إلخ.

يقول سماحته: «وحين نقارن الأحكام بالقوانين الوضعية نجدها هي الأخرى تهدف إلى تحقيق غايات؛ يتصورها المشرع ويبيّنها عادة في التشريع، سواء في مقدمة الدستور أو في مواد القانون استناداً إلى بنود الدستور، وعند البحث عن الغايات نجدها متنوعة، وربما تختلف فيما بينها وتتعارض، مما يجعلنا نبحث عن الغاية الأسمى فيما بينها، أو عن سُلَّم الأولويات بينها».

وإزاء هذا التعدد في الغايات والأهداف يأخذ البحث منحىً تفصيلياً، وتثار العديد من الأسئلة حول طبيعة هذه الأهداف وطريقة انتقاء الأهم والأسمى بينها، ثم يصار إلى تسليط الضوء على الجانب التوضيفي لهذه الأهداف، والنزوع إلى رؤيتها ماثلة في مفردات حضارية من قبيل القانون والأخلاق والمجتمع، وبالتالي العلاقة بين هذه المفردات والغاية من وجود الإنسان، ما هو هدف حياته، وماهو مصيره؟ وكيف يعيش عيشة فاضلة راضية؟. يقول سماحته: «هل هذه الغايات مطلوبة بصورة انفرادية (كل واحدة غاية بذاتها)، أم هي

جميعاً تعود إلى غاية واحدة؟ أو عدة مفردات محدودة من الغايات تعتبر الأصل؟

كذلك على نطاق الشريعة نتساءل ماهي غاية الغايات. وذروة القيم التشريعية؟ ويقودنا سير البحث إلى سؤال عريض آخر: إذا كانت الشريعة الإسلامية تهدف بناء مجتمع أمثل، فما هو الهدف العام لهذا المجتمع؟ بتعبير آخر: كيف نتصور الإطار العام للمجتمع الاسلامي، والروح التي يجب أن تسوده؟

وهنا يتخذ البحث منحى «جديداً» ويصبح أوسع وأهم، لأنه يتناول وضع المجتمع ككل بما فيه الجانب القانوني، والحقول التربوية والأخلاقية، والعرف والعادة وما إلى ذلك. وهكذا يهدينا البحث إلى القضية الأهم التي تتسع وتتسع حتى تشمل كل أبعاد حياة الإنسان؛ وهي القضية الفلسفية التي تطرح الأسئلة الكبرى، من هو الإنسان؟ وماهو سر وجوده في هذه الدنيا؟ وماهو هدف حياته؟ وماهو مصيره؟ وكيف يعيش عيشة فاضلة؟

هذه الأسئلة التي تشكل الإجابة عنها حقيقة الدين، كما يعتبرها الفلاسفة من اختصاصهم حيث يسمُّونها بالحكمة».

وهكذا نجد أنَّ الدين هو انعكاس لإرادة الخالق في تجسيد هدفية الحياة، وحمل الإنسان الحي فيها أن يسلك طريقاً مستقيماً إلى الحياة الآخرة، وذلك من خلال الثبات على هذه الهدفية والإيمان بما يحدد هويتها، وعنوانها بما يرد في القرآن وتؤكده أحاديث الرسول الأكرم ﷺ والأئمة من أهل بيته المعصومين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

الهدفية وآفاق المعرفة

في نفس الوقت الذي تجسِّد فيه (الهدفية) مصداقية العقل والمنطق؛ فتمنح الأشياء أسماءها ومعانيها، وتوجد العلائق بينها وبين مفاهيم الوعي والإدراك والشعور؛ فإنَّ هذه الهدفية تستحث في الانسان الطموح لاستكشاف أهدافٍ أخرى تعكس معانٍ ومسميات، وتثير لدى الإنسان الحافز والدافع للوصول إليها والإحاطة بتفاصيلها وأبعادها، وفي أولوية هذه الأهداف ما يقترن بالمعرفة ويدفع بالطموح الى آفاق واسعة ضمن الاستدلال والاستهداء إلى أجوبة ظلت تؤرق هذا الإنسان في مراحل عديدة من حياته. ومن ذلك البحث في أصل الحياة وهدفها والشروع بدراسة حقول المعرفة الأخرى، على أنَّ هذه الأطر العامة تنطوي في داخلها على سلسلة استكشافات لم تزل تنقل الوعي الإنساني من مرتبة الى أخرى في سلم العلم والمعرفة والطموح؛ فيلاحظ أنَّ هذا الوعي دائم التطلع والاندفاع باحثا عن كنه الأشياء تمهيداً لاستكشافها ومعرفة مسمّياتها ومعانيها.. يقول سماحة المرجع الديني السيد المدرسي: «وهكذا يتدرج البحث عن الهدف الأسمى (أو القيمة الحياتية) عبر ثلاث مراحل:

١ - البحث الفلسفي العام: حيث يناقشون الحقائق الكبرى مثل أصل الحياة وهدفها،

وعلى صعيد التأمل الديني نجد هذا في بحث العقائد أو (علم الكلام).

٢ - البحث الاجتماعي الشامل: حيث يهتم الفلاسفة أيضاً بهذا البحث في حقل التأملات الأخلاقية، أو ما يسمونه بالحكمة العلمية، كما يتناوله علماء التاريخ والاجتماع والتربية في مقدمة بحوثهم؛ في حقل فلسفة تلك العلوم (فلسفة التاريخ ـ فلسفة الاجتماع ـ فلسفة التربية أو ما أشبه).

٣ - البحث القانوني (التشريعي): حيث إنَّه هو الآخر بحاجة إلى معرفة فلسفته ولا تعني فلسفة القانون إلا تلك القيم والأهداف؛ التي ينشدها القانون، كذلك في (الدراسات الدينية) حكمة الشريعة أو (علل الأحكام) هي البحث عن تلك الغايات والقيم التي تنشدها».

وهكذا يلاحظ أنَّ الهدفية قرينة تصاعد حركة المعرفة والتطور لدى الإنسان، فمن خلال هذه الهدفية تتجلى مفهومية المسؤولية، ويتضح لديه طبيعة الدور المناط به، وتستمر هذه الحقيقة ترافقه منذ اللحظات الأولى لمجيئه الى الحياة فهو يتغذى لهدف، ويتعلم لهدف، ويبحث عن الحقيقة والموقف والرؤية المتوازنة لهدف أيضاً، حتى إذا بلغ هذه المرتبة من الهدفية يبدأ بالتطلع إلى أهداف أخرى، تتمثل بتسليط الضوء على جوانب الحقيقة واكتشافها، وذلك من خلال استعانته بأدوات متعددة للمعرفة تأخذ لنفسها عناوين ووظائف عديدة ومختلفة..

وازاء ذلك نجد أنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هو؛ إلى أي مدى نستطيع أنْ نعتبر العقل مؤهلاً لأداء هذه المهمة؟ وهل يمكن له وحده تحديد جميع الأهداف، وتكريس شرعيتها وقدسيتها والوصول إليها؟. للجواب على هذا السؤال نقول: إنَّ العقل الإنساني كثيراً ما يجد نفسه في موضع اختبار وتمحيص شديدين، في سياق سعيه المتواصل للوصول إلى سلسلة الأهداف التي لا تنتهي، تماماً كالطموح الإنساني.. وموطن هذا الاختبار والتمحيص لا يتمثل بصعوبة الوصول او استحالته؛ ذلك لأنَّ الانسان يملك من المؤهلات ما يمكِّنه من تحقيق ذلك، غير أنَّ حقيقة هذا الموطن تكمن في طبيعة الطرق والوسائل المعتمدة في تحقيق مهمة الوصول، فقد يتمكن الإنسان من الوصول إلى هدفه بطرق ووسائل سيئة وغير شرعية، وفي ذلك تطاول على قوانين الحياة وتهميش خطير لضوابط العلاقات الإنسانية، ومن هنا فإنَّ هذه الطريقة من الهدفية تعكس تكريساً لجانب الشر في الإنسان؛ وبالتالي فهي تمثل التفافاً خطيراً على معنى الهدفية الذي يفترض ان يكون ذا أبعاد بنَّاءة وليست هدامة.

وبناء على ذلك فإنَّ معادلة الإبداع والإنجاز هي التي تقوم على تأصيل مفهوم الهدفية واحترام أبعاده ومعطياته القيمية والأخلاقية، وعند ذلك يبرز دور الوحي في تسديد العقل وتلقينه بما يحتاجه من علم ومعرفة، عند ذلك تستيقظ مكامن الخير في داخل هذا الإنسان

مثلما تتراجع نوازع الشر والانحراف؛ حتى تصبح الرؤية واضحة لديه فضلا عن توفر الأدوات والوسائل الشرعية المعتمدة للوصول.

يقول سماحته: «لقد كانت الحدود الشرعية التي تضبط حركة فكر الإنسان واحدة من أهداف الشريعة، ولكنها لم تكن الغاية الوحيدة لها، إذ استهدفت أيضاً بعث الحركة في الإنسان، بعث الحركة في روحه وعقله وفي جوارحه، فقد استهدفت الإثارات النافذة، والتي هزت أعمق المستويات في روح البشر (الجنة والنار، الحساب، والجزاء) استهدفت فتح نافذة من روح الإنسان على الحقائق، وآياتها وإثاراتها، حتى لا تعيش حالة السبات والانطواء والكفر والجحود، وبالتالي لا تعيش وراء حجب الضلال فتشذ عن سنن الله تعالى في الخليقة النشطة، الساجدة، المسبحة». وبهذا التحول الكبير في مسار الوعي وطريقة تفكير وتأمل الإنسان؛ يستطيع الخروج من الدائرة المادية الضيقة منطلقا لآفاق رحبة يلتمس فيها الخلاص من تجاذبات المادة وتفاعلاتها، والارتقاء بإنسانيته فوق الحالة السلوكية اللاهدفية، وفي هذا الصدد يقول سماحته: «وحين تنتفض الروح، يستفيق العقل، ويروح يحلق في كل أفق، ويبحث عن الحكمة، عن المعرفة، عما حجب عنه من أسرار الخليقة، عن آمادها وأبعادها، عَمَّا يقرِّبُهُ إليها، عما يهيئ له تسخيرها. وبين الروح والعقل تتحرك جوارح الانسان، في سعي دائب وحركة متواصلة، مرة لخدمة العقل (السمع والبصر والفؤاد) ومرة لخدمة الجسم (سائر جوارح البشر) مرة للدنيا (ابتغاء فضل الله) ومرة للآخرة (السعي للآخرة) مرة للنفس وأخرى للآخرين.. إنه نشاط دائم، وتحفز مستمر».

وهكذا عن الطريق والحدود الشرعية واستلهام مفرداتها ومنطلقاتها يصبح بأمكان الانسان ان يكتشف الأهداف بعين المسؤولية فيبادر الى احترام معانيها ودلالاتها معتمدا الوسائل والأدوات الشرعية في الوصول إليها.

تأسيس المنطلقات الأصيلة والتحرك نحو المستقبل

ان قيمة الأشياء بمعانيها، ومن غير هذه المعاني تتحول الأشياء الكبيرة والعظيمة الى مجرد مسميات وشكليات جوفاء وفارغة. وبناء على ذلك قد تتحول منهجيات فاعلة وغنية الى مجرد مسميات وعناوين لسبب بسيط هو ان طريقة التعاطي والتعامل معها لم تكن قائمة على أساس الفهم والإحاطة العميقة والواعية، ولذا فقد نشأت حواجز كثيرة وكبيرة بين الانسان وبين هذه المنهجيات الأمر الذي أدى الى تخلف ذلك الانسان وبالتالي ان تلقى تبعة هذا التخلف على المنهجيات في الوقت الذي لا يختلف فيه اثنان على ثرائها وعلميتها.

ويؤكد سماحته هذه الحقيقة بقوله: «ولكن عقدة المسلمين في عصور التخلف أنهم عرفوا الحدود والرسوم والشعائر، ولكنهم غفلوا عن تلك الحقائق التي تناسب عبرها، كما غفلوا عن ضرورة حركة الجوارح في إطار تلك الرسوم والشعائر، وزاد المشكلة تعقيدا ان الحدود التي رسمت

لنا كانت متأثرة بقدر وآخر بالظروف التاريخية لحركة الأمة فلما توارثها الأجيال، وتغيرت الظروف الموضوعية للحركة داخل المجتمعات الجديدة، زادت الفجوة بينها وبين واقعهم اليوم» واذا كانت الحاجة الى مواكبة التطورات والمتغيرات ضرورية وأساسية لجهة تحديد فرص الاستجابة والنهوض في المنهجية واستثمارها في تفعيل حركة المجتمع ودوران عجلة التقدم فإن مثل هذه المواكبة يجب ان تكون قائمة على الوعي والفطنة واخضاع ظواهر التطور الى المزيد من الدراسة والتمعن وتجنب الإسراع في التعاطي معها وتحجيم العلاقة العملية لتكون قاصرة على التعامل مع القشر وليس مع اللب والجوهر، يقول سماحته: «ومع إنبعاث الحركة الحضارية في الغرب واقتحامها حريم حضارتنا وتراثنا ومكونات شخصيتنا الداخلية، تغيرت الظروف الموضوعية تغييرا كبيرا فكان الفصام بين الواقع اليومي المعاش وبين جملة الحدود والرسوم والشعائر التي فرغت من محتوياتها الغنية وكانت المأساة التي لازلنا ندور في حلقاتها المغلقة، والتي يمكن الخروج منها بتغييرات ثقافية (كالذي مضى عليه المتأثرون بالثقافة الغربية) مثل تغيير الزي او اللغة او كتابة الحروف وإشاعة التحلل او حتى استيراد مناهج الاقتصاد والسياسة ذلك ان الحضارة ليست سلعة تشترى ولا تقنية تنتقل، وإنما هي مبعث روح التحضر التي تتساقط معه الحجب المصطنعة بين الانسان وواقعه المعاش الحافل بالتطورات اليومية فإذا انبعثت الروح تعالى المسلمون عن سلبيات تراثهم واتصلوا مباشرة بعهد الوحي حيث نزل متعاليا عن الذاتيات البشرية» غير ان مثل هذه الذرائع الواهمة التي يحاول من خلالها البعض الخروج من دائرة التخلف والتراجع لا تمثل في واقع الأمر سوى مظهر من مظاهر الشعور بالفشل والنقص فالبحث عن القرار الصائب لدى الآخرين عملية عقيمة وغير مجدية ذلك لأن القرار عادة ما يصنع محليا ولا يستورد من الخارج ومن هنا فإن المطلوب هو الشروع بإعادة قراءة دقيقة ومتمعنة للذات والقيام باستكشاف قدراتها وامكاناتها تمهيدا لاستثمارها في صناعة القرار والموقف وتأسيس المنطلقات الأصيلة للتحرك نحو المستقبل والعمل على بنائه وفقا لأسس علمية وحضارية، يقول سماحته: «واذا تجاوز المسلم اليوم حاجز الزمن وإتصل بالقرآن الكريم (كلمة الله العليا التي لا تتأثر بزمان او ظرف) وبدأ يقرأه غضا طريا ويتدبر في آياته، ويسعى من أجل الاستلهام من حقائقه بما يتناسب مع وقائع حياته فإن عقله يوقظ من سباته ويقوم بأضخم أعماله الا وهو تطبيق المطلق على المحدود (بما يسمى بالاجتهاد في لغة الفقه) وهناك يعرف التأويل الصحيح (تطبيق النصوص العامة على المفردات)».

الإسلام.. وسيلة الانتقال من الجهل الى الوعي

العلاقة بين الانسان وبين ايمانه بالحقائق وتصديقه بها تقوم على أساس الفهم والإحاطة فعندما تكون فكرة ما جلية وواضحة تربطها مع الوعي قواسم مشتركة وسبل للاتصال والوفاق عند ذلك تكون هذه الفكرة مؤهلة للفهم والتحليل ومؤيدة بالدراسة والبحث والتمحيص وبالتالي تكون ممهدة لاتخاذ الموقف النوري ازائها.. غير ان الملاحظ

هو ليست جميع الحقائق جلية وسهلة على الفهم والإدراك الأمر الذي يؤكد على تعقيد تلك العلاقة بين الانسان وبين بعض الحقائق.

ولاشك ان مرد ذلك التعقيد ناشيء عن التصاق الانسان بأدواته الحسية ومصاديقه المادية فكلما كانت الأشياء خاضعة لتلك الأدوات والمصاديق كلما كانت مقربة من فهمه وإدراكه وعلى العكس من ذلك تبدو النتيجة تأخذ وضعا مقلوبا فكلما كانت بعيدة عن أدواته الحسية ومصاديقه المادية كلما كانت سبل الوصول الى فهمها أكثر صعوبة وتعقيدا على الرغم من كونها موجودة وممكنة الوصول، وعلى ذلك فلو أتيح لهذا الانسان السبب الفاعل للاستدلال والايضاح لأمكن الوصول الى تلك الحقيقة بالنظر الى كونها موجودة وممكنة الوصول، يقول سماحته« عندما يعقل البشر حقيقة، يكون في بحبوحة الاندماج بها، وفي صميم الانسجام مع نفسه في بؤرة الكينونة، ولعل منشأهم الانسان بالعلم الذي لا يشبع، هو هذه النزعة الفطرية في العودة الى الوطن بعد الغربة والأوبة الى الحقيقة بعد الضلال في متاهات الوهم».

وعندما تكون العلاقة بين الانسان والحقيقة صميمية وتلازمية كعلاقة الانسان بوطنه او علاقته بالهدى بعد الضلال، عند ذلك يكون النزوع الى الالتقاء مع بعضهما والعودة الى دائرة التلاحم والتعايش المبدع والبناء أمرا مصيريا وحالة مقدرة لا يمكن للانسان او للحقيقة ان يخرجا على قوانينها او ينقطعا عن أحكامها وسياقاتها فليس في مقدور الانسان على سبيل المثال ان يهرب من الموت وان دأب على التمني والتخيل بحياة أبدية راغدة وهادئة لا يعرف طارق المنون سبيلا اليها ولا الهلاك طريقا الى صاحبها كما ليس لهذا الانسان بدا من مواجهة الحقيقة القائمة بعد انتهاء عمره وقضاء نحبه وان تمشدق بالألحاد وتذرع بالاعذار والافكار وهكذا تبقى الحقيقة ملازمة لهذا الانسان وان ابتعد عنها او ابتعدت عنه كما ان الالتقاء بينهما لابد وان يأخذ حيزه في مسيرة الانسان ولائحة قدره، غير ان الأمر المهم والأكثر مدعاة للكفاح والنضال هو ان يكون هذا الإلتقاء في الزمان المناسب وان يكون الحيز الذي يحتله في مسيرة الانسان يجسد هو الآخر الحدث المناسب في الموقع المناسب ولاشك ان هذه الضرورة التناسبية ليست عملية مستحيلة خاصة وان الله سبحانه وتعالى أنزل رسالته الخاتمة (الاسلام) لتكون السبيل الى الصراط المستقيم والوسيلة للانتقال من الجهل الى قمة الوعي بحاجة الى إثارة الروح وانهاض العزم، وبعث حوافز الخير وان هذا الهدف من أعظم أهداف الرسالات الإلهية، التي نقلت الانسانية دوما من مرحلة لأخرى، في رحلة الكمال الدائمة.

وكذلك كانت خاتمة الرسالات الإلهية والجامعة لما فيها من أهداف، او المهيمنة عليها جميعا (القرآن الكريم) كانت معراجا للعقل الى أسمى مدارجه، حتى ليكاد المتدبر فيها يستفيد من كل آية زخما روحيا يدفعه نحو التفكير والتذكر لكي يعقل العبر ويعي البصائر،

ويستلهم السنن (الأنظمة الكونية).

ومن هنا يلاحظ ان العلاقة بين الانسان وبين الحقائق هي علاقة قائمة على حاجة الانسان الى التكامل والخلاص من أزماته ومحنه الكثيرة والمعقدة وبالتالي الانتقال الى واقع يوفر له الرؤية الصافية والغنية ويضمن له الوصول دون ضلال الى هدفه المقدس.

(القيم) أولا وقبل كل شيء

تتسم الطريقة التي يتداول بها الوسط الفلسفي معنى (القيم) ومصدرها ودورها في الحياة والمجتمع بالتعدد والتباين في الآراء ووجهات النظر ففي حين يجد البعض ان القيم تصور ذاتي يقترن مع حاجة الانسان ويمثل تبريرا نفسيا وأخلاقيا لها يرى البعض الآخر وجود حاجة بيولوجية أساسية تسهم في تشكيل هذه القيم وتحدد طبيعة الدافع والحافز لها.. غير ان سماحة آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي يرى ان القيمة تختلف عن الحاجة فهي تحتل مرتبة أسمى وتؤكد هيمنة واضحة على الحاجة.

يقول سماحته: « يرى بعض العلماء أمثال (ماسلو) ان مفهوم القيمة مساو لمفهوم الحاجة، كما يرى البعض ان للقيمة أساسا بيولوجيا فهي تقوم على الحاجة الأساسية فلا يمكن ان توجد قيمة لدى الفرد الا اذا كانت لديه حاجة معينة يسعى نحو تحقيقها او اشباعها، ويقسم بعض الباحثين القيم بهذا المفهوم الى نوعين..

ألف: أولية، تتعلق هذه القيمة بالحاجات البيولوجية.

بـاء: قيم ثانوية وهي تهتم بالجانب الأخلاقي والاجتماعي.

الا اننا نرى ان القيمة تختلف عن الحاجة، صحيح ان الايمان قد يضفي على حاجة من الحوائج قيمة، ولكن القيمة أسمى من الحاجة مثلا الصائم يحس بالجوع ويحس بالفراغ البيولوجي وبالتالي هناك حاجة تدفعه نحو الطعام ولكن القيمة التي يتحسس بها أعلى من هذه الحاجة فيكف نفسه عن الطعام ».

وعلى ذلك يمكننا القول ان القيم هي صيغ معرفية لإعادة تشكيل المضمون التقليدي للحاجة ومن هنا فإن الحاجة وفقا لهذا المفهوم تبدو وهي تقترن بأبعاد تفضيلية تجعل منها تابعة للقيمة وليس العكس.. يقول سماحته: « من هنا نجد بعض العلماء أمثال (ملتون دوكش) يرى ان هناك اختلافا بين المفهومين، فالقيم في نظره عبارة عن تمثيلات معرفية لحاجات الفرد او المجتمع وان الانسان هو الكائن الوحيد الذي يمكنه عمل مثل هذه التمثيلات وفي ضوء ذلك يميز بينهما على أساس ان الحاجات تولد لدى جميع الكائنات سواء الانسان او الحيوان، في حين ان القيم يقتصر وجودها على (الانسان) ان معنى اقتصار وجود القيم على الانسان يؤكد على علاقة هذه القيم بتكوينه البيولوجي وبالتالي الى خصائصه العقلية والفكرية التي تميزه عن الحيوان حيث يكون بفضل هذه الخصائص

معنيا بالمزيد من الحاجيات والاهتمامات وبينها حاجته الى العيش في إطار مجتمع قائم على النظام والقانون ومعزز بعوامل منطقية وتشريعية تحفظ لذلك المجتمع توازنه وتسهم في تكريس مفرداته الإنسانية والعقلية »..

يقول سماحته: «يقول في ذلك (هنري آرفوم) الانسان على خلاف الحيوانات مزود بقشرة دماغية تملك ـ فضلا عن مراكز الإضفاء ـ عددا يزيد مرتين على مراكز الارتباط، ومن المعلوم ان هذه المراكز الأخيرة لا توجد لدى الحيوانات الدنيا، وأنها قليلة العدد جدا لدى الثدييات العليا، وإنما لدى الإنسان ـ والإنسان وحده تنفرد الارتكاسات الطبيعية التي تحددها مراكز الاضفاء بأنها خاضعة الى مراكز الارتباط من حيث التوجيه والكف والمراقبة، ويضيف ليس من الغلو ان نقول ان الانسان من الناحية الفسيولوجية عبد قشرته الدماغية.. وهذا التعلق حاسم فيما يتصل بتطوره الطبيعي مادامت القشرة الدماغية التي لا تتجدد تؤلف الحد النهائي في نمو الحياة، ويقول الانسان هارب من الحياة ولاجئ الى التجريد وان ذكاءه التقني ينسف القيم المشخصة والغريزية جميعا».

هذه الحقيقة تدحض النظرية القائلة بإرتباط القيمة بالحاجة فمثل هذه النظرية حتى على افتراض صحتها فهي سرعان ما تنتهي الى مفهوم مغاير آخر عندما نعرف ان تفاعل المفردات داخل التكوين البيولوجي للانسان سيمنحها أبعاد ومعان أخرى تختلف عن السابقة. يقول: (حتى لو افترضنا بأن الحاجة هي وراء القيمة فإن هذه الحاجة تتحول في دماغ الانسان الى حاجة روحية، او الى نوع من التمثيل المعرفي لكي تتحول الى درجة القيم، اذا فالطعام قد يتحول عند الانسان الى قيمة بينما يبقى عند الحيوان حاجة مادية ومن هنا نعرف: ان الحاجة قد تكون مصدر قيمة ولكنها لن تكون ذات القيمة وهي الى ذلك مصادر واحد بينما المصدر الثاني والأهم للقيمة هو إحساس الإنسان بالكرامة).

وبما ان القيمة بهذا المعنى يقترن بالهدف والغاية فإن هذا الاقتران لابد ان يقترن من جديد بعامل آخر هو (الدافع) فالدافع الذي يجسد التفاعل النفسي داخل الانسان والمنبه الى طبيعة الهدف وضرورة الحركة بإتجاهه يمثل العنصر المكمل الى جانب القيمة: ما هو الدافع؟ انه توتر داخلي يحرك الانسان نحو هدف معين، بينما القيمة، هي ذلك التصور القائم خلف هذا التوتر.

القيم والمنطلقات التربوية والاخلاقية

تعد القيمة بمثابة المعيار المعني بتوجيه السلوك والموقف وإلهام الأنسان الحوافز الأخلاقية الكفيلة بتقويم علاقاته مع الآخرين وعلى ذلك فأن (القيمة) تتبوأ المرتبة العليا بين المفردات العقلية والنفسية في كيان الأنسان وتحتل الموقع المتقدم في مفاهيمه الأجتماعية والأنسانية وبما أنه في ميوله وسلوكه عرضه للأنحدار والأنحراف وهو ما يترتب عليه

الكثير من النتائج السلبية التي تلقي بضلالها على جوانب حياته المتعدده ولذا فأن القيم تمثل الحلول الفكرية والأخلاقية المصيرية والسبيل الذي لابد من سلوكه كسراط مستقيم يؤدي إلى ضفة الخلاص والنجاة ومن هنا قد يجنح إهتمام الأنسان بشيء ما إلى المغالاة في طلبه وبالتالي إلى العميائية والأنحراف جراء ذلك، وهنا يأتي دور القيم في تبصير ذلك الأنسان وتقويم مواقفه وسلوكياته.. يقول سماحته: «الأهتمام أخص من القيمة، حيث أن الأهتمام هو الرغبة في شيء، ولكن هذه الرغبة قد لا تكون قيمة، من هنا يفرق بعضهم بين الأهتمام والقيمة على أساس أن الأهتمام هو أحد المظاهر العديدة للقيمه ويساعد في توجيه الفعل وتحقيق الذات وإن مفهوم الأهتمام أضيق من القيمة فهو لا يتضمن ضرباً من ضروب السلوك المثالية أو غاية من الغايات، كما أنه من الصعب القول بأن الأهتمام معيار، له صفة الوجوب التي تميزبها».

وبما أن القيم تشكل مع بعضها منظومة مفاهيمية تعنى بتقويم سلوك الأنسان وتحديد أدواته المعرفية والعملية فهي تشكل مع بعضها معاطات وظيفية متبانية وذات دلالات تراتيبية قد تدفع بالأنسان للتخاير والتفاضل بينها، وخلافاً للرغبة نجد أن القيمة تؤشر إلى أهداف وغايات عليا وبعيدة على عكس الرغبة والأهتمام اللذين يقترنان عادة مع هدف وغاية خاصة وليست عامة، يقول سماحته: «ثم القيم تتميز عن غيرها من المظاهر الشخصية مثل الميول فتجد أن القيم تهتم بالأهداف البعيدة العامة كما أنها تترتب فيما بينها ترتيباً هرمياً أي أن بعض القيم تسيطر على غيرها أو تخضع لها، فالفرد يحاول أن يحقق قيمه جميعاً ولكن إذا حدث تعارض بينها فأنه يخضع بعضها للبعض الآخر وفقاً لترتيب خاص به، وثم ميزة أخرى للقيمة وهي أنها أبطئ في التغيير من الأتجاهات والميول، ومن الضروري أن ننظر إلى القيم على أساس أنها لا تعكس مجرد حاجاتنا وإهتماماتنا الخاصة ولكنها تعكس إيضاً ما يثبت ويعاقب عليه المجتمع».

وهكذا يلاحظ أن القيمة بناء على هذه الخاصية تعنى بأيجاد الأهتمام على أن يكون ذلك الأهتمام قائم على منطلقات تربوية وأخلاقية تتصل بتطلعاته وتوجهاته المتسامية وبناء على ذلك قد يكون الأهتمام مقترناً مع حالة سيئة كأهتمام المجرم بجريمته أو ما شابه ذلك وفي مثل هذا المورد تكون القيمة أبعد ما تكون عن مثل هكذا إهتمام لأنه سوف يعكس مدى تجاهل الأنسان وتجاوزه على قيمه. يقول سماحته: «وبكلمة القيمة تخلق عند الأنسان درجة عالية من الأهتمام، ولكنها تتصل عادة بكرامة الأنسان، وبأحساس فوق طبيعي عنده، وهكذا تختلف عن الأهتمام في الأمور التالية:

١ - الأهتمام قد يكون بشيء غير ذات قيمة كأهتمام المجرم بجريمته.

٢ - الأهتمام لن يصنع معياراً لمعرفة الحسن عن القبيح.

٣ - الأهتمام عادة شخصية بينما أغلب القيم عامة، ولذلك تصبح أساساً لحكم

اجتماعي (مثل القانون أو العرف).

٤ - الأهتمامات قد تتناقض، بينما القيم تتسلسل هرمياً.

٥ - القيمة توجب إهتماماً بالغاً، ولكن ليس كل إهتمام ناتج عن قيمة.

ثم يشير سماحته إلى ملامح شخصية الأنسان مؤكداً على أن طبيعة هذه الملامح تدل على العلاقة الوثيقة بينها وبين القيمة ويورد في هذا الأتجاه عدة شواهد فلسفية توضح تلك العلاقة.. يقول بـ«السمة هي ملامح شخصية الأنسان من حيث العموم وقد صنف (جيل فورد) صنف ملامح الشخصية إلى سبع فئات من السمات تشكل من حيث المجموع شخصية الأنسان وهي: الأتجاه، والميول، والمزاج، والحاجات، والأستعدادات وبناء الجسم، وظائف الجسم».

ويقول: «وحيث أن ملامح شخصية الأنسان، إتجاهاته وميوله وهي تتصل بالقيمه (حيث أن القيمة تحدد إتجاه الفرد وميوله) فأن علاقة القيمة وسمة الشخصية هي علاقة الجزأ بالكل، وفيما يتصل بالعلاقة بين مفهوم الأتجاه وبين مفهوم القيمة □ □

الهوامش:

(١) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية/١٤٤.

(٢) العاملي، الشيخ محمد حسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٧٦، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث، قم المقدسة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

(٣) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية/٢١.

(٤) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية/١٧٩.

(٥) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية/١٨٥.